على باب رحمتك

تجاوزت النطاق الضيق للانطلاق، أصبح الرصيف رحيباً حين لم أشعر بمن حولى وكأن عصفوراً فك أسره بغتة لم يدر ماحدث وماعساه فاعلاً بها، تمهلت فى حما سور مدرسة لم أعد قادراً على المضي، هل تعرف هذه الحالة، يسيطر عليك ضجرك فلا تجد جديدا تفعله، تنام، تستيقظ مرة أخرى، تغتسل مرة أخرى، شعور سيزيف وهو يدفع الصخرة للأعلى كل يوم ويا له من عقاب، حتى صادفت الصوت. لو سمعته ستشعر أنك تعود القهقرى هذا صوت شارد رجع صدا محفور فى ذاكرة منسية منذ عقود، لاشك أنه ينتمى لذوقنا، إنما يأتى وكأنه أنة موجات راديو خشبى قديم، صوته جميل للغاية، ليس قويا ولكنه حزين، جماله يكمن فى حزنه وانكسارات الضعف فيه، يذكرك بأشجان الماضى الجميلة وقصص الحب المؤلمة، آت من سحب القرار اويذكرنى بصوت جدى وهو على فراش الموت يحيى تحيته الأخيرة! تأملته فى وقفته المستكينة الثابتة، جسيم التكوين، شبه الحافى ووجهه المتغضن ذو السمات السمراء، ذقن أبيض طويل مغبر، ملابس رثة يستند على عصا برأس الشومة الاسيوطي. يمد اليد للأمام فيضعون له فيها بقايا

قليلة وعيناه بل ليس هناك عينان. هما تجويفان أسودان يبعثان قشعريرة فى جسدك، كان بطيئا فى سيره، لكننى سرت خلفه طويلاً، أرقب واستمع لصوته العفى وأنا لا أشعر بمن حولي، حينها انتصف الليل، قل عدد المارة وقل تدفق النقود فى يده، فتوقف فجأة عن الغناء. اقتربت منه، وضعت بيده عشرة جنيهات، ثم ملت على أذنه هامساً: هذه عشرة جنيهات كاملة فلا تتوقف عن الغناء. ابتسم واطبق يده بشده وقال: أعطنى عشرين وسأغنى لك حتى الصباح" قلت له متصنعاً الغضب: "لاحاجة لى بجشع مثلك رد لى النقود" وضع النقود بجيبه بسرعة وقال: ولكن ما الذى يضمن لى أنها حقا عشرة. ها ربما كانت جنيهاً أو حتى نصفا قلت له: أترانى أغشك لتغنى الموال العبيط الذى تقوله، كل ما أريده الاتتوقف" اغتصب ابتسامة حزينة ثم قال: أنا لا أغنى بالأمر سأغنى لك إذا جُرعت على الجلوس معى على القهوة وطلبت لى الشاى أو أى شىء آخر".

قلت ضاحكا باستمتاع: وأنا جريء على ذلك أخذت يده وسرنا معا فى الطريق لم ادر الاتجاه ولاكيف أخذته إلى احد المقاهي، وما إن جلسنا حتى هم الساقى بطردة تدخلت: هو معي، أنا من سيحاسب على أى شيء قال له الساقى فى سأم وقرف ظاهر: "اطلب واتمنى ياسيدي"؟

ابتسم وقال:"شيشة تفاح وقهوة تركى مانو وشوف الباشا يشرب إيه؟ أسرعت أقول: شاى.. أتى الساقى بالطلبات بسرعة

عجيبة حتى ظننت إننا الوحيدان بالقهوة، بعد لحظات صمت أخذ يدندن بصوت واثق عريض: على باب رحمتك يا رب، قاعد ومستنى ساعة قبول ورضا وتزيل الهموم عنى من باب رحمتك يارب، باطلب وفاء الدين من اللى ياما وسعتهم، بالقلب قبل العين أذانى يا رب القريب، ومسلمتش من القاصى وغدر بعمرى الحبيب واظنه مات عاصى صمت ثم قال لي: "سجلت اللى قلته".

قلت مستغربا سؤاله: لا ولماذا أسجل؟.

قال لي: (عشان الماجستير بتاعك ولا الدكتوراه مش برضه أنت من بتوع الفلكلور الشعبى ولا أنت ملحن من بتوع اليومين دول بتدور على تيمه ضايعة، زادت الدهشة لدى والفضول، آه يا شيخ ماذا تظن أنك لازلت مطمعاً لأحد، إنك لم تفقد قيمة تدعيها لنفسك بين الأحياء، أولازال يداعبك الأمل فى شى من الحياة وانت بهذه الحالة ربما. قلت متأثرا بما أنصرف له قلبي: أو تسمح لى بتسجيل الكلمات والألحان فى جلستنا هذه بل وتقول للصبح كما وعدتني؟"

قال لي: بالطبع بل وكل يوم لو أنك رايت ذلك فيه إفادة قلت له: من أين تعلمت تلك الأصوات.

مال على وقال همساً: "لم تفترض إنى ولدت ضريراً شحاذاً بلا عافية" بالرغم منى ضحكت من طريقة نطقة المتلونة، أخرجت الموبايل وأدرت التسجيل وكأنه أحس فاعتدل واستقر على الكرسى وبقوة انطلق:

أصلى بجدرم الصعيد، ويمكن كمان نوبى

أنا ما خبرش ان كان اكيد

وده يفرق ايه فى توبي،

أحلامى فوق الوصف وبتبتدى من هناك لبعيد،

إنما والدنيا حوجانا لمد الأيد،

واللقمة والهدمة مهمازولجام ونخسهم شديد

يسوى ضهرى وش وقفا سخمة العديد

اش يعمل العمر المديد،

وكل السنين والايام وكام الف الف عيد،

وحقى فى الضنك بيزيد

وحقى م الحياة مهضوم والعيشة زى الشريد،

هج المهندس والطبيب واللى ضاع فى البحر غايب أو ياعالم مات شهيد،

الظلم طخ عيار نافد على كلمتى وبسمتى وضنا عشر تلاف بلد،

والسوق بلع الصبايا والعيال الخضر اللى اتفطم واللى اتولد،

مليون غلطة ع الرصيف حتى الرغيف بقى بالجلد،

والناس فى الدوخة ومش حاسين نهش الجسد،

زحف الخراب سكاكين حديد وانفار ومعاول هدد،

بصوا على اللى جاى يا مغيبين نمل وجراد،

جالبين وراهم عدة وعتيد ومدد،

وتزيد الحروق والشقوق اتسدى بقى اتسدى يا آهات من غير عدد

وآه يا بلد آه يابلد؟

وأنا أجمع شتات الكلام من العيون والاوجه التى شدها حضوره الطاغى على مسرح المقهى أسكته: يكفي. استرح قليلاً انفعالك أفلت من أسر العقل يحسن أن نتناول شيئا آخر بل ربما نأكل يا" ...أومأ برأسه وسمعت اصواتا خفيضة من الجالسين: اتركه يقول أكثر..صوته مثل الرعد مؤثر أعد تلك التى شهق فيها. كيف قال تلك الجميلة، انظروا إليه. هل حقاً هو شاعر. أظنه ملحن ألا ترى كيف يؤدى الموال، لمحت شبح ابتسامات مع ما انعقد من حاجبيه وأظنه كان يصغى السمع لما يدور، كان هناك المزيد مما قاله فى تلك الليلة، انصرف رواد المقهى ببطء على آذان الفجر، كنت قد سجلت عدة ساعات أشياء لا أعرف بالضبط ما نفعها بالنسبة لي، نفحتُه ما فى حافظتى بعد سداد الطلبات، مع وعد بأن أحضر المزيد من الوقت معى والنقود أنشدنى شهراً تاريخ من لا تاريخ لهم

صوراً ومواقف بالنغمات عاندت الأوزان كثيراً وصالحتها أو صافحتها. وقطرت الإ بحر وأغرقتها، أهى الفطرة ام التمكن من مخالفة ذات الاصل ، هكذا أخبرنى الوقت الاحيلة وراء الصوت والشدو الموهوب إنه إنسان أو أن القصة نبض الشخص بطلا كان أو كذابا أو إنها لا قصة على الإطلاق.